الانتماء والهويّة
قضيّة الرهبانيّات في لبنان والشرق

الأب سليم دكّاش اليسوعيّ*

الانتماء والهويّة قضيّتان في قضيّة واحدة، تأخذ أبعادها اليوم في دور الرهبانيّات، وفي مستقبل الرسالة الرهبانيّة في لبنان وفي الشرق. ولمناسبة إعادة قراءة الإرشاد الرسوليّ رجاء جديد للبنان وإرشاد الحياة المكرّسة فإنّ قضيّة الانتماء الرهبانيّ والهويّة الرهبانيّة تفرض نفسها علينا في زمن المتغيّرات والتقلّبات، وتدعو جميعنا إلى النظر في ما هو الأساس والجوهر. فيكون هذا الأساس هو مقياسُ عملنا، ونظرُنا إلى الماضي والحاضر، ورسالتُنا التي هي في الكنيسة.

معنى بدايات الرهبانيّة في الشرق

ليس من النافل أن أذكّر بأنّ بداية الرهبانيّة في العالم المسيحيّ كانت في الشرق نفسه، وبالتحديد أرض مصر، موطن أنطونيوس أبي الرهبان، حتّى إنّ الرهبانيّة في القرن الرابع الميلاديّ أصبحت ظاهرة شرقيّة شاملة ارتبطت بها أسماء لمعت في تاريخ المسيحيّة، أمثال: أنطونيوس وباخوميوس وكاسيانس وسمعان العموديّ وغيرهم من الرهبان. والواضح أنّ الرهبانيّة، في تفكير الأوّلين وروحانيّتهم، كانت استمرارًا لروحانيّة

(*) رئيس تحرير المشرق.

الاستشهاد من أجل الملكوت الحقّ، روحانيّة طبعت القرون الثلاثة الأوائل من تاريخ المسيحيّة. والرهبانيّة جاءت أيضًا ردّة فعل على المسيحيّة التي دخلت، مع بداية القرن الرابع الميلاديّ، عالم السياسة والاقتصاد والمدنيّة، وبالتالي عالم التراخي والابتعاد عن قِيَم الإنجيل. إنّ الرهبانيّة في بداياتها المشرقيّة هي فعل احتجاج على الفساد السائد، وعلى مساومة بعض الناس بالعادات والتقاليد الوثنيّة، وهي موقف رفض يقول بأنّ قِيَم الإنجيل تأتي أوّلًا، وهي المقياس لكلّ عمل وموقف وانتماء ومشروع عالميّ. وهذه الروحانيّة قادت المئات، لا بل الآلاف من المؤمنين والمؤمنات، إلى اختيار حياة العزلة والوحدة والتوحّد من أجل المسيح وإنجيله، لا بل مع المسيح يسوع. وهذا الاختيار أصبح تحرّرًا، مع بعض الإفراط والتجاوز، من كلّ مجتمع أيًّا كان لونه؛ تحرّرًا من المؤسّسات المنظورة كالعائلة والطائفة والمنطقة والقبيلة والحزب... ليصبح همّ الراهب، بمختلف وجوهه، أمتوحِّدًا كان أم ناسكًا أم ديريًّا، أن ينتمي إلى ملكوت الربّ في إطار شعب الله عبر طرقٍ روحانيّة متنوّعة فيها التقشّف والعمل الروحانيّ والصلوات والزهد والصوم، حتّى الاستنارة التي تقود إلى الوحدة. فالرهبانيّة هي طريق إلى توحّد الراهب بذاته، وتوحيد ذاته عَبرَ التحرّر من كلّ الوسائط، وعبرَ ترويض النفس والعفّة وترك كلّ شيء من أجل ملكوت المسيح، من أجل السلام والفرح والعدالة والحقّ والحرّيّة، وهي قِيَم تأتي في ختام سعي المتوحّد وجهاده.

ثابتتان من الثوابت: التأصُّل والروحانيّة

هذه صورة موجزة عن المثال الرهبانيّ الروحانيّ الذي عاشته الرهبانيّة الأولى حياةَ عزلة وحياة شركة، أريد أن أكمّله بثابتتين من الثوابت: لم تكن الحياة الرهبانيّة بعيدة عن الكنيسة وعن شعب الله، بل هي من صلب الكنيسة وفيها، وقد أتت مختلف القوانين لتؤمّن استمراريّة الروحانيّة الرهبانيّة ورسالتها في الكنيسة. ولم تكن الرهبانيّة بعيدة عن هموم الدنيا وعن الجسد الاجتماعيّ، بالرغم من بعض المغالاة والتطرّف

في رفض العالم، فهي إنجيليّة في نظرتها إلى العالم لأنّ همّها هو خلاصه وتوحّده. قال أحد الرهبان النسّاك من القرن السابع، موجزًا علاقته بالعالم: «المجد لك أيّها الآب، ويا ربّ حياتي، يا مَن جعلني رباطًا لجميع الخلائق لكي تصعد بي الخلائق كلّها وتسبّحك». كرّس هذا الراهب الناسك نفسه ليكون في خدمة العالم، فيحمل العالم كلّه إلى الله: هذه هي طريق الرهبانيّة في نقائها وحقيقتها وجوهرها. فالهويّة الرهبانيّة، من خلال اختبار الحالة الرهبانيّة الأولى، وقد امتدّت من العصور اللاحقة حتّى اليوم، هي أن نكون للمسيح نفسه، وأن نكون ثانيًا للمسيح في وجوه إخوته وأحبّائه حيثما وُجد الراهب، فيساعد شعب الله على الوصول إلى كمال دعوته وإلى تحقيق ذاته.

والثابتة الثانية التي أتت بها الحياة الرهبانيّة عَبرَ مرحلتها الأولى حتّى الفتح الإسلاميّ هي ارتباط تلك الحياة بروحانيّة متكاملة الوجوه، أي تعبير يونانيّ كانت أم قبطيّ أم سريانيّ. فالشرق المسيحيّ هو صاحب الروحانيّة الأولى في الكنيسة، أي النظر الواقعيّ إلى الحياة وإلى حياة المؤمن كتطلّع وتوق إلى المطلق. الروحانيّة هي تلك الرؤية وتلك الممارسة التي تجمع بين القِيَم والمبادئ من ناحية، وبين واقع الإنسان وتاريخيّته من ناحية أخرى، وهي قوّة الدفع المستمرّة لأيّ مشروع يرمي إلى أن يحقّق الإنسان دعوتَه وجوهرَه.

قد يرى بعضهم في هذه الصورة المثالية عن الحياة الرهبانيّة تحرّرًا من الانتماء أو دعوة إلى اللاانتماء. الواقع أنّ الانتماء على نوعين: الأوّل انتماء منطقيّ حسابيّ خارجيّ يقوم على علاقة اعتباريّة محدَّدة للفرد بالصنف أو الفئة التي يدخل هذا الفرد في نطاقها. والثاني انتماء وجوديّ اجتماعيّ يقوم على علاقة هويّة الفرد ومصيره بجماعة محدَّدة معيَّنة. وفي هذا الانتماء الأخير، لا بدّ من إظهار محدوديّة الانتماء كانتساب إلى مجتمع معيَّن أو بيت معيَّن أو بطن معيَّن... مع أنّ بعضهم يرى في هذا النوع من الانتماء علاقة هويّة تربط أفراد الجماعة المباشرة بعضهم ببعض.

إنّ هذا الانتماء لا مكان له في الحالة الرهبانيّة، أللدلالة على الرهبانيّة كحياة مشتركة كان أم على الرهبانيّة في علاقتها بالعالم المحيط بها. لا مكان له في الحالة الرهبانيّة لأنّه يجعل من الفرد عضوًا على أساس ارتباط خارجيّ، وهو انتماء قابل للانقطاع في أيّ وقت.

إنّ الانتماء، الذي هو في صلب الحياة الرهبانيّة وجوهرها، لا بدّ أن يكون انتماءً ينطوي على علاقة قويّة، روحيّة، متأصّلة في الذات والنفس؛ على علاقة عميقة تحوّل العضويّة في حياة الجماعة إلى تفاعل حيويّ مصيريّ. قد يكون الانتماء الوجوديّ الاجتماعيّ متعدّدًا ومتنوّعًا، فتكوّن لدى الفرد مجموعة من الانتماءات التي لا بدّ له أن يرتّبها ترتيبًا متوازنًا في شخصيّته لكي يحافظ على التوازن والانسجام. وقد يترتّب عليه أن يغلّب انتماءً على آخر في حال تضارب تلك المجموعة من الانتماءات. ولا شكّ في أنّ تعدّد انتماءات المجتمع نفسه وتضاربها أحيانًا وتنافسها وتعنّدها أحيانًا أخرى، تنعكس على الحالة الرهبانيّة في أيّامنا، كما هو الأمر عند أيّ فرد من أفراد المجتمع. وفي إطار الحياة الرهبانيّة والكنسيّة، لا شكّ في أنّ من مواضع الإشكال علاقة الشموليّة بالخصوصيّة أو الخصوصيّة بالخصوصيّة الأخرى. فهل هذه العلاقة هي علاقة نفي الآخر، أم علاقة تغليب، أم ترتيب أو توفيق؟

الانتماء الثلاثيّ

إنّ انتماءنا اليوم هو ثلاثيّ:

أوّلًا: نحن ننتمي إلى الكنيسة الجامعة، وفي الوقت عينه إلى الكنيسة الشرقيّة ورهبانيّاتنا، منها من مصدر غربيّ ومنها من مصدر شرقيّ.

- إلّا أنّ الانتماء إلى الكنيسة الجامعة لا يمنع أن تكون همومنا هموم الكنيسة الشرقيّة، بقدر ما تعبّر هذه الهموم عن حاجات الكنيسة، ولا يمنعنا أيضًا من أن نحمل أيضًا هموم الكنيسة الجامعة والكنائس الأخرى، وذلك نابع من جوهر هويّتنا ورسالتنا.

- رسالتنا هي من رسالة الكنيسة، بقدر ما للكنيسة المحلّيّة دعوتها الخاصّة ورسالتها الخاصّة، في محيطها الشرقيّ العربيّ الخاصّ.

- المجمع الڤاتيكانيّ الثاني دعا الرهبانيّات، كلًّا في موقعه، إلى إصلاح ذاتها وإلى أخذ الخصوصيّات الثقافيّة بعين الاعتبار. إذ إنّ لكلّ شخصيّة ثقافيّة ميزتها وغناها، وأصبح بالتالي الانتماء إلى الشموليّة انتماء إلى روحانيّة لها منطلقاتها ومبادئها، إلّا أنّ هذه مدعوّة إلى أن تتأقلم وأن تتجسّد في أوضاع معيّنة محدّدة.

- لسنا في هامش الكنيسة أو فرقها أو لسنا النموذج المثاليّ، بل دعوتنا ورسالتنا هي أن نكون تلك العلامة الفارقة بمشوراتنا الإنجيليّة، وبالموهبة التي أُعطيت كُلًّا منّا، وهي تذكّر شعب الله بمعنى التزاماته في المدينة البشريّة، وبأنّ هدفه الأخير هو المدينة السماويّة. إنّنا كلّنا، إلى أيّ روحانيّة انتمينا، نقوم بهذه الخدمة، بكلّ أمانة وتجرّد. فإذا كانت الرهبانيّات ذات المصدر المحلّيّ رسوليّة في خدمتها الإيمان ضمن نطاق الخصوصيّة، على مثال الليتورجيّة والخدمة الرّعويّة... فإنّ الرهبانيّات ذات المصدر الغربيّ، التي لها انتشار عالميّ في كلّ الأصقاع والعوالم، تقوم بدور الرديف المكمّل للخدمة حيث يجب ذلك، فتحمل همومًا كثيرة منها تعزيز علاقة الإيمان بالثقافة وحضور الشبيبة في الكنيسة والوحدة بين الكنائس والحوار الإسلاميّ - المسيحيّ والتراث المسيحيّ المشرقيّ، واللاهوت المسيحيّ العربيّ المشرقيّ.

الانتماء هو انتماء إلى كنيسة شرقيّة واحدة، وهذا الانتماء جعل من الرهبانيّات ذوات المصدر الغربيّ جزءًا من الكنيسة المحلّيّة من دون أن يفقدها طابعها العالميّ، وجعل من الرهبانيّات ذوات الارتباط المحلّيّ جزءًا من الكنيسة الجامعة فتغنيها بروحانيّتها الخاصّة... وهذا الانتماء هو انتماء تكامليّ، فلا يكون هناك تضارب في الخدمة والرسالة، بل توزّعٌ في الأدوار يهدف إلى جعل الرسالة فاعلة وناجحة.

نحن نكمّل بعضنا بعضًا، ومن هذا المنظار لا بدّ أن نكمّل رسالتنا.

وثانيًا: ننتمي إلى روحانيّات متعدّدة في الشرق نفسه وحتّى في إطار الغرب عينه. نحن ننتمي إلى روحانيّات مختلفة لأنّ الدعوة الرهبانيّة هي جواب مميّز عن دعوة خاصّة متميّزة. إنّ روح الربّ في الكنيسة هو الذي ينوّع المؤسّسات الرهبانيّة، وهو الذي يدفع كلّ فرد إلى عطاء ذاته ووجوده من خلال واحدة من هذه المؤسّسات.

الخطر في الانتماء إلى الروحانيّة، طريقًا خاصًا لعيش قيَم الإنجيل وقراءة الأحداث وعلامات الأزمنة، هو مزدوج: أن نجعل من تلك الروحانيّة أمرًا مطلقًا على الإطلاق، أو أن نسقط في تجربة التعلّق بتقاليد ورثناها من الماضي بشكل أعمى، فتصبح تلك الروحانيّة شيئًا جامدًا متحجّرًا منغلقًا على ذاته، أو ننظر إليها وكأنّها متحف خال من الحياة، بدل أن نكون منطلقًا إلى الحياة والحياة المستقبليّة الوفيرة. فالأمانة الحقيقيّة على التقاليد والمؤسّسين هي أن تبقى الحياة الرهبانيّة في حالة تأسيس مستمرّ، فيكون المستقبل مؤسّسًا على تميز روحيّ أكيد لا على مجرّد عواطف وأفكار تجاوزها الزمن، وابتعدت عن حالة الإنسان المعاصر الذي ينبغي تحريره.

مع المجمع الفاتيكانيّ الثاني ومع الكنيسة في أيّامنا، ومع سينودس الحياة المكرّسة، لن نستطيع بعد اليوم أن نرى تغليب روحانيّة على روحانيّة أو أن نترك الروحانيّة تمسي أداة للسيطرة أو أداة ثقافيّة لقهر الآخر، لأنّ الروحانيّة في المؤسّسة التي تجسّدها تدعو إلى الانثقاف أو التثاقف، أي إلى التجسّد في ثقافة أخرى. ومقياس نجاح هذه الروحانيّة هو في قدرتها على التكيّف مع كلّ ثقافة وأن تصبح جزءًا من هذا الإطار الثقافيّ.

وثالثًا: نحن ننتمي إلى مجتمع معيّن، إلى العالم الذي نحيا فيه ونعيش. هذا الانتماء لا بدّ أن يؤدّي، في إطار دعوتنا، إلى التزام بقضايا عالمنا ومشاكله وصعوباته. الانتماء من دون الالتزام الوجوديّ هو مجرّد

انتساب خارجيّ. وهويّتنا الإنجيليّة، كأتباع للسيّد المسيح، حيثما حللنا ومن أيّ روحانيّة كنّا، تدفعنا إلى الالتزام بقضايا إنسان اليوم، إذ إنّ هذا الإنسان هو في الجهل الروحيّ، في العبثيّة، في الاستهلاكيّة، في الفقر والبؤس، في الحرمان من حقوقه أيًّا كانت هذه الحقوق. إنّ الحياة الرهبانيّة، أمن روحانيّة شرقيّة كانت أم غربيّة، لا تعرف في هذا المضمار إلاّ الحقّ، والحقّ وحده يحرّر ويبني.

ويجاري الالتزامَ - تعبيرًا حسّيًا عن الانتماء إلى العالم النبانيّ الشرقيّ العربيّ هذا - إيمانٌ بأنّ هذا الالتزام يؤدّي إلى الفداء، أي أن يكون الراهب والحالة الرهبانيّة في المقدّمة لا في المؤخّرة؛ أي أن لا يكون الالتزام في النزعة الخطابيّة، بل في البذل والعطاء بدون حساب؛ ولا يكون أيضًا في نزعة الظهور والبروز، بل في العمل الصامت المحبّ. وهذا الالتزام - الفداء - نظرًا إلى جسامة القضايا والمشاكل المطروحة، لا بدّ أن يدفع مؤسّساتنا الرهبانيّة إلى العمل الواحد في زمن الانهيارات المتنوّعة، وإلى ضرورة التلاقي لجعل المستقبل مستقبل الوطن والإنسان. ولن يكون هذا المستقبل قائمًا على أسس ثابتة قويّة، عميقة الجذور، إلّا بمقدار ما نعمل بذهنيّة منفتحة على الآخر. . .

في ختام هذه المقالة أتوقّف على الثوابت التالية:

الانتماء إلى الشموليّة لا يتنافى مع الخصوصيّة، لأنّ الخصوصيّة في انفتاحها على الشموليّة تغني نفسها وتغني الشموليّة، وهي بالتالي تجد المقياس لنقد ذاتها ومسيرتها.

إنّ مهمّة الرسالة الرهبانيّة في أيّامنا، كما في الأمس، هي أن تصيغ الروحانيّة التي تتوافق مع متطلّبات إنسان اليوم وطموحاته، إنسان الحداثة؛ لا أن تعيد أشكال الماضي بصورة جامدة. الروحانيّة هي حياة روحيّة، حياة في الروح وفي أفكار الإنجيل المباشرة، حياة القيامة والتطويبات.

الانتماء الرهبانيّ في هويته الإنجيليّة، هذه الهُويّة التي نتبنّاها في فعل الأمر: «كُنْ للمسيح وإنجيله»، وهي هويّة يعطيها الربّ نفسه، لا يجعل منّا أناسًا أفضل من غيرنا، أكمل من غيرنا، بل هو تحذير ممّا هو أنانيّ في أيّ انتماء آخر، فنميّز الأنانيّ عن غيره أعائليًا كان أم مناطقيًا أم طائفيًا... وتكون لنا الشجاعة في نبذ تلك الأنانيّة.

والرسالة الرهبانيّة في أيّامنا ومستقبلًا، وانطلاقًا من إرشاد «الحياة المكرّسة» رسالة السينودس من أجل كنيسة لبنان، هي التذكير المستمرّ بأنّنا كنيسة جسد المسيح المسكونيّ، لا مجموعات أو طوائف مشرذمة، لكلّ مجموعة مصلحتها ومستقبلها بالانفصال عن الآخرين.

رسالة الرهبانيّة هي أن تكون خادمة للكنيسة ولشعب الله، فتكون المؤسّسة التي لا تعطي بالكمّ والعدد وَحَسْب، بل تساعد شعب الله في تميز طريق المستقبل، لكي يكون هذا المستقبل قائمًا على روح المحبّة والمصلحة والتعاون والحقّ.

رسالة الرهبانيّة هي أن تجعل الإيمان بالمسيح إيمانًا حيًّا متفاعلًا مع بيئته، إيمانًا متأصّلًا على الدوام.